الخزائن بولاية ادرار وجهودها في حفظ المخطوطات العربية

أ/ عبد القادر بقادر

جامعة قاصدي مرباح ورقلة

الملخص:

تعالج هذه المقالة واقع المخطوط بولاية ادرار (توات)، هذا الأخير القابع في الصحراء الكبرى، حيث قساوة الطبيعة الحارة صيفا، والباردة شتاء، إن المخطوطات جزء من تراث الأمة، والاهتمام به دليل على وعي أبنائها بمتطلبات المستقبل، لأن المثل يقول: "لا مستقبل لمن لا ماضي له"، ومن هنا واهتماما بالمخطوط أنشأت بولاية ادرار العديد من الخزائن التي تولت حفظ المخطوط وصيانته على الرغم من قلة الإمكانيات، إن المخطوط في ولاية ادرار (توات) مر بأربع مراحل كبرى عبر قرون عديدة؛ مرحلة الكتابة والنسخ، ثم مرحلة النهب والسلب، فمرحلة الضياع والإهمال، ثم مرحلة البعث والإحياء.

تتناول هذه المداخلة:

توات ملتقى تجاري وعلمي

نشأت الخزائن والمكتبات بولاية أدرار (توات)

المخطوط مراحله وواقعه بولاية ادرار (توات)

المخطوط وخزائنه إرث ثقافي تاريخي

عوامل إتلاف المخطوطات

منّ الله عز وجل على إقليم توات مِننًا كثيرة أهمها موقعها الجغرافي؛ حيث توسطت الصحراء الكبرى فكانت همزة وصل بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب، ولهذا استقطبت إليها أعدادا كبيرة من الناس أفرادا وجماعات منذ عصور بعيدة؛ تجارا، وزهادا، وصالحين، وعلماء، وطلبة، وما زادها حظا في استقطاب أولئك هو توفر الأمن والأمان بها، فقصدها الكل بحثا عن الراحة والأمان، وهروبا من الصراعات السياسية والفتن القبلية والثورات، حتى صارت قِبلة للعلماء، وطلبة العلم من كل صوب وحدب، فصح أن يقال: "كُلّمَا ذُكِرَتْ توات إِلا ذُكِر معها الأمنُ والعلمُ والصلاحُ".

توات ملتقى تجاري علمي:

شكلت توات عبر العصور ملتقى تجاريا للقوافل القادمة من الشمال الإفريقي نحو السودان، والقافلةِ من السودان نحو شمال إفريقيا، وكذا تلك القوافل التي تقصد الحج من المغرب والسودان، فكان التقاء القوافل وتوقفها بتوات يُنشِئ أسواقا تعج بالخلق، يقول العياشي في رحلته إلى الحج واصفا سوق تسابيت [1]: "وهذه البلدة [تسابيت] هي مجمع القوافل الآتية من تنبكت، ومن بلاد أكيدز من أطراف السودان، ويوجد فيها من البضائع والسلع التي تُجلب من هناك شيء كثير، والسلع التي تجلب من الغرب مما هو خارج السودان نافقة في هذه البلاد؛ كالخيل وملابس الملف والحرير، فإذا قدم الركب إليها كان فيها سوقٌ حافلٌ" [2]، ولم تكن هذه الحال في سوق تسابيت وحدها، بل كانت كل أسواق إقليم توات على تلك الحالة [3]. مما جعل التجارة تنشط بها، وتبع هذا النشاط التجاري نشاط علمي واسع حيث أن كل القوافل التي كانت تعبر توات كانت تحمل معها علماء وزهادا وصالحين، فمنهم من طاب له المقام بها فاستقر بتوات وأقام مدرسة أو زاوية مثل الشيخ مولاي سليمان بن علي [4]، والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي[5] الذي لجأ إليها فرارا من الصراعات السياسية التي كانت سائدة في المغرب العربي آنذاك، وغيرهما كثير، فكثرت بالإقليم الزوايا والمراكز العلمية، فكان لزاما أن يكون لكل زاوية أو مركز

علمي خزائنُهُ ومكتباتُهُ التي تساعد الطلبة على تلقى العلم، وفي أحضان تلك الزوايا والمراكز نشأت حركة علمية خرّجت وكوّنت العديد من العلماء المؤهلين كل في تخصصه ومعترف لهم الكفاءة العلمية، وتلك الحركة العلمية الثقافية هي التي مكّنت لتوات أن تلعب ذلك الدور العلمي الكبير عبر الأزمنة المختلفة، لمَا توفر بها من العلماء الذين أبدعوا وأنتجوا؛ فكان لتلك الحركة العلمية والثقافية صداها العميق فاق حدود توات شمالا وجنوبا، شرقا وغربا.

نشأة الخزائن والمكتبات بتوات:

إن تلك الحركة العلمية التي نشأت بتوات كان نِتاجُهَا عظيما؛ وهي التي نمت بفضل التفاعل الحضاري والاقتصادي الذي عرفه الإقليم [6]، إن الحركة العلمية التي عرفها إقليم توات لم يكن لها أن تقوم لو لم تجد من يرعاها وينميها؛ فلولا جهود العلماء الأفذاذ الذين كان لهم الفضل في نشر العلم والتفقه في الدين وتعليمه الناسَ [7]، وكذا حرصهم على اقتناء الكتب (المخطوطات)، لكن السؤال الذي يطرح نفسه؛ هو كيف وصلت المخطوطات إلى توات رغم بعدها عن العمران؟

إن وصول المخطوط إلى توات لم يكن هينا فقد تجند لذلك جملة من العلماء المشهود لهم بالكفاءة والعلم؛ حيث شجعوا طلبتهم على المطالعة واستنساخ الكتب، ومن ثم التأليف

في مختلف الفنون، وهناك طرق أخرى مكنت للمخطوط هذا الحضور الكثيف بتوات سأجملها في الآتي:

1. مجيء العلماء الوافدين على توات بمخطوطاتهم وكتبهم؛ لأنها أثمن الأشياء لديهم وحملها معهم يعد ضروريا
2. تَصَيّد طلبة العلم بتوات للقوافل التجارية التي كانت تحمل معها الكتب والعلماء، فيقومون بشراء المخطوطات أو استنساخها من أصحابها الذين يمتلكونها
3. رحلات علماء توات إلى الحواضر الإسلامية القديمة (فاس، شنقيط، القيروان، القاهرة، تمكتو، الجزائر...)؛ حيث يقومون بعملية شراء ونسخ الكتب هناك ثم العودة بها إلى توات
4. زيارة أهل توات البقاع المقدسة قصد الحج، فكانوا ينتهزون الفرصة لنسخ أكبر قدر من المخطوطات وشرائها، وحملها أثناء عودتهم إلى توات
5. التوقف أثناء رحلات الحج عند كل حاضرة إسلامية، والوقوف على مكتباتها وعند علمائها للأخذ عنهم ونسخ كتبهم والإطلاع عليها وشراء البعض منها
6. الزيارات الداخلية للزوايا التواتية ونسخ كتبها أو البعض منها
7. تبادل النسخ بين الزوايا والمدارس القرآنية قصد نسخها مما نتج عنه تعدد النسخ والنسّاخ للمخطوط الواحد

8. رغبة أهل توات في اقتناء المخطوطات وتملكها حتى في منازلهم، مما كوّن ونتج عنه مكتبات منزلية خاصة صغيرة
9. مقايضة الكتب بالسلع وبخاصة التمر الذي كان متوفرا وأهم المنتوجات الزراعية بتوات وهذا الأمر كان شائعا في العديد من البلدان

ومن هنا أصبح لأصحاب الزوايا والمدارس القرآنية والمساجد خزائنهم الخاصة، كما كان لبعض الأهالي خزائنهم الخاصة في منازلهم، فكان بكامل تراب توات بأقاليمها الثلاثة ما يزيد عن السبعين خزانة ومكتبة، وتذكر الآثار أن أول خزانة أنشأت بتوات كانت خزانة سيدي بونعامة التابعة لزاويته بقصر أقبلي [8]، وليس معنى ذلك أنه لم يكن للزوايا التي أنشأت قبل زاوية سيدي بونعامة مكتبات وخزائن، وإنما هذا ما دلتنا عليه الوثائق التي وصلت إليها أيادي الباحثين، وفيما يأتي هذا جدول يضم بعض الخزائن التواتية على سبيل المثال لا الحصر:

الرقم	اسم الخزانة	مكان وجود الخزانة	البلدية	اسم المؤسس	تاريخ التأسيس
01	خزانة (الركب)	قصر الزاوية	أقبلي	سيدي بونعامة	652هـ
02	خزانة اركشاش	قصر أركشاش	أقبلي	محمد التهامي	القرن 07هـ
03	خزانة الشيخ محمد بن	قصر ساهل	أقبلي	محمد بن	القرن 08هـ

	مالك	القديم		مالك	
04	خزانة ملوكة	قصر ملوكة	تيمي	البلباليون	قبل القرن 09هـ
05	خزانة المطارفة	قصر المطارفة	المطارفة	الحاج محمد بن أحمد الراشيدي	قبل القرن 09هـ
06	خزانة أولاد المليانى	قصر تيمادنين	رقان	سيدي محمد بن علي بن زكريا	961هـ
07	خزانة سيدي الحاج بلقاسم	زاوية سيدي الحاج بلقاسم	تيميمون	سيدي الحاج بلقاسم	قبل القرن 10هـ
08	خزانة الشيخ المغيلي	زاوية الشيخ بن عبد الكريم المغيلي	زاوية كنتة	الشيخ المغيلي	قبل القرن 10هـ
09	خزانة أنزجمير	أنزجمير	انزجمير	؟	قبل القرن 11هـ
10	خزانة تينيلان	تينيلان	ادرار	سيدي أحمد بن يوسف	قبل القرن 11هـ
11	خزانة الشيخ	قصر	تمنطيط	سيدي أحمد	ق. 14 هـ

	سيدي أحمد ديدي	تمنطيط		ديدي	
12	خزانة كوسام	قصر كوسام	تيمي	محمد بالعالم	ق 14هـ
13	خزانة باعبد الله	قصر باعبد الله	أدرار	بن الوليد	ق. 14 هـ
14	خزانة الشيخ باي بلعالم	قصر الركينة	أولف	محمد باي بلعالم	ق. 14هـ
15	خزانة بني تامر	قصر بني تامر	تيمي	سيدي عبد الكريم البلبالي	ق 14هـ
16	خزانة أولاد إبراهيم	قصر أولاد إبراهيم	تيمي	قريشي مولاي علي	ق. 14 هـ

إن هذه الخزائن وغيرها كان لها الفضل الكبير في تكوين جيل لا زلنا ندين له بالكثير، وهي التي حفظت لنا التراث العربي المخطوط في شتى التخصصات المعرفية والعلمية والدينية، فقد كانت هذه الخزائن مليئة بالمخطوطات العربية في شتى التخصصات العلمية؛ من فقه، وحديث، وتفسير، وبلاغة، ونحو، وصرف، وتاريخ، وطب، وتراجم، وتوحيد، وقراءات، وفلك... [9]، كما أنها لعبت أدوارا حاسمة في خلق جو وحركة علميتين وثقافيتين، بفضل التنافس بين علماء وطلاب العلم بالإقليم؛ فقد كان الطلبة

يتفاخرون ويتنافسون في الأخذ عن هذا العالم أو ذاك، فيسافرون من زاوية إلى أخرى، ولم يكتفوا بذلك بل راحوا يجوبون الأقطار الإسلامية بحثا عن العلم والمخطوطات وكذا الحصول على الإجازات العلمية[10]، وعلى هذه الشاكلة ساروا قرونا حتى كان القرنان الثاني عشر، والثالث عشر الهجريين عصرا ذهبيا وذلك بفضل العدد الهائل للعلماء الذين عاشوا به، وكذا توفر المخطوطات العربية النفيسة بخزائنها، ولا ننسى العدد الهائل للزوايا ودور العلم بالإقليم، وعليه فقد كانت الخزائن التواتية ذات قيمة تاريخية وثقافية ودينية؛ حيث أرخت للأحداث التي عاشها إقليم توات وما جاورها، كما عكست الجوانب الثقافية والفكرية والدينية للإقليم[11]، كما كان لها الدور الكبير في حفظ التراث العربي المخطوط وذلك كله بفضل جهود الرجال القائمين عليها إلى حد الساعة، رغم النكبات وعوامل الإتلاف التي توالت عليها.

مراحل المخطوط بتوات وواقعه:

إن المخطوط بإقليم توات عاش فترات حرجة وصعبة، فما كدنا نفتخر ونفرح بهذا الإرث التراثي التاريخي، حتى راح الحساد يسرقون منا تلك الابتسامة حسدا من عند أنفسهم، ولكن شاءت قدرة الله أن يقيض لهذه الأمة من يحيي تراثها ويبعثه من جديد، وها هي حياة المخطوط بين المد والجزر في هذه المراحل:

مرحلة الجمع والنسخ:

وتبدأ هذه المرحلة من تأسيس أول زاوية بإقليم توات، إلا أننا لا نستطيع الجزم بأول زاوية أسست بتوات، غير أن الوثائق التي بين أيدينا تثبت أن أول زاوية فتحت أبوابها أمام الطلبة كانت زاوية الشيخ سيدي مولاي سليمان بن علي في أواخر القرن السادس الهجري تحديدا سنة 585هـ، ومما لاشك فيه فإن تلك الزوايا التي توالت في الفتح والتأسيس كانت تتبادل المخطوطات فيما بينها؛ فكل زاوية تحاول نسخ المخطوطات التي لا تتوفر لديها، هذا ما جعلها تتنافس فيما بينها للحصول على أنفس المخطوطات بعدة طرق ذكرنها في هذه المداخلة آنفا، ومن ثَمّ ظهر بإقليم توات رجال تخصصوا في نسخ الكتب؛ حيث توفرت لهم المادة الأولية لعملية النسخ والمتمثلة في الصمغ بألوان مختلفة، والورق، والأقلام بمختلف الأحجام، وكانت عملية النسخ تلك هي وظيفتهم، وأذكر من بين النساخ: إسماعيل بن علي، وعلي بن محمد بن مالك القبلاوي، ومحمد الطيب بن عبد الرحمن بن محمد، وسالم بن محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن البلبالي، ومحمد بن عبد الله بن محمد بن الحاج أحمد، ومحمد بن الحاج المحجوب بن الحاج محمد التواتي، ومحمد عبد الرحمن بن محمد الجزولي، وأبا مدين بن الحاج أبا بكر، وامحمد بن أحمد البداوي بن محمد المحضي، ومحمد عبد الله بن عبد الرحمن بن أمحمد

التينيلاني[12]، وفي كثير من الأحيان كان العلماء والشيوخ يتولون بأنفسهم عملية نسخ الكتب، ومنهم الشيخ سيدي عبد الرحمن بن عمر التينيلاني [13]، والشيخ سيدي الحسين بن سعيد، والشيخ سيدي البكري بن عبد الرحمن التينيلاني ت (1339هـ)، الذي كان يعتني برونقة خطه، وكَتَبَ ديوانه بنفسه.

إن عملية نسخ الكتب لم يكن أمرا هينا إنما هي أمانة تحملها أولئك الرجال؛ فالناسخ لابد أن تتوفر فيه شروط أهمها:

1. العلم بعلوم اللغة العربية
2. جودة الخط ووضوحه إلى درجة التفنن فيه
3. المهارة والسرعة في الكتابة

وبفضل النساخ والشيوخ استطاعت خزائن الزوايا بتوات أن تجمع وتحتفظ بالمخطوطات العربية النفيسة في مختلف الفنون عبر قرون، وعلى نسخ متعددة وبنساخ مختلفين، كما تجدر الإشارة هنا إلى أن علماء توات قد أنشأوا خزائن بكل من مالي ونيجيريا، والنيجر.

مرحلة النهب والسلب:

وهي من أصعب المراحل التي عرفتها خزائن المخطوطات بأقاليم توات الثلاثة، فقد كانت هذه المرحلة في العهد الاستعماري

حيث قام الاستعمار الفرنسي بسرقة ونهب أنفس المخطوطات العربية وأجودها من توات، ويقال: إنه أحرق الكثير منها في وسط ساحة بقصر زاوية كنتة، لقد عمل الاستدمار الفرنسي على تدهور المخطوط ومكّن له طريق الخروج من البلاد[14]، يقول الدكتور عبد الكريم عوفي: "إن المخطوطات في إقليم توات قد تعرضت للنهب والسلب على يدي المستعمر منذ القرن التاسع عشر الميلادي، ولا سيما الترجمان الفرنسي (مارتن الجيبي) الذي رافق الحملة التي نزلت بالمنطقة سنة 1904م، فقد عمل الرجل على جمع المخطوطات التي تحتفظ بها القصور والخزانات وإحصائها، ثم انتقى أجودها وحملها معه إلى فرنسا" [15]، وفي هذه الفترة كان المخطوط يوأد على مرأى ومشهد من الناس، الذين لم يكن لهم مقدرة على التغيير.

مرحلة الإهمال والضياع:

وكانت هذه المرحلة بعد الاستقلال واستمرت إلى غاية سنة 1984م، فقد استمر الوأد ولكن بطريقة مختلفة؛ حيث كانت المخطوطات تدفن في التراب أحيانا، أو عرضة لعوادي الدهر، والشيء الذي أسهم في ضياع المخطوط هو تلك الذهنيات التي كانت تقوم على الخزائن، أو بمعنى آخر بعد أن كانت الخزائن أماكن للمطالعة والقراءة، أصبحت مغلقة أمام الباحثين، والدارسين، وطلبة العلم، وهكذا صارت المخطوطات عرضة لعاديات الدهر؛

من سوسة، وأرضة، وقساوة الطبيعة الصحراوية، حتى أصبح الكثير منها ترابا، وكما أخبرني صاحب خزانة ملوكة [16]، قبل صيانة المخطوطات بها: "كانوا يُخرجون المخطوطات ترابا من الخزانة"، أضف إلى ذلك ما كان يقوم به بعض سماسرة التراث الذين هم من أبناء الإقليم مما يزيدنا حسرة على ما ضاع من تراثنا الشاهد على حضارتنا رغم حسد الحساد، كل هذه العوامل وغيرها كانت وراء ضياع التراث عموما والمخطوط خصوصا.

مرحلة البعث والإحياء:

وتبدأ هذه المرحلة مع سنة 1984م وإقامة المهرجان الأول للتعريف بتاريخ منطقة توات، لقد كان لهذا المهرجان وقعه الإيجابي في فتح أعين الباحثين على هذا التراث المنسي، وفي هذه الفترة عرف هذا الإرث ميلاد أول مركز محلي يعتني بالبحث والدراسات التاريخية المحلية تحت اسم "مركز الدراسات والأبحاث التاريخية لولاية ادرار"، ولولا تفطن بعض المقيمين على الخزائن، بمساعدة الدولة وبعض المحسنين لأصبحت تلك الخزائن في خبر كان، ومن هنا جاءت فكرة فهرست مخطوطات خزائن الولاية جردا وإحصاء، وتمثلت الجهود المبذولة في:

1. إعادة نسخ بعض المخطوطات مع الحفاظ على المخطوط الأصل بعد معالجته بعيدا عن الأيادي

2. تصوير المخطوط، ووضع الصورة في متناول الباحثين والدارسين، بدلا من المخطوط الأصل

3. نسخ المخطوطات على أقراص مدمجة، أو على ميكروفيلم

4. تزويد بعض الخزائن بأجهزة حواسيب مع لوازمها

5. تزويد بعض أصحاب الخزائن بأدوات الصيانة والمواد الحافظة للمخطوط، وكذا على خزائن معدنية

6. إقامة دورات تكوينية لفائدة بعض أصحاب الخزائن من أجل الحفاظ على المخطوط وطريقة التعامل معه، ومنحهم شهادات بذلك

7. إعادة بناء بعض الخزائن على الطريقة العصرية الحديثة

8. إنشاء مركز وطني للمخطوطات بالولاية ادرار

إن هذه المبادرة جيدة، ولكنها تظل قليلة مع عشرات الخزائن وآلاف المخطوطات، لأن هذه المبادرة لم تمس إلا تلك الخزائن الكبرى والمشهورة كخزانة ملوكة، كوسام، وتمنطيط، سيدي بونعامة، والمطارفة...[17]، ولا يجب أن ننسى تلك التجمعات والملتقيات الوطنية وحتى الدولية التي قادها أساتذة جامعيون وباحثون مستقلون، ورغم كل هذه الجهود إلا أن الخزائن لا تزال في حاجة إلى فهرسة مخطوطاتها تسهيلا للباحثين والدارسين.

أما عن المركز الوطني للمخطوطات فهو عبارة عن مؤسسة عمومية ذات طابع إداري يتمتع بالشخصية المعنوية والاستقلال المالي، وهو تحت وصاية وزارة الثقافة والاتصال، وأنشئ هذا المركز بمقتضى المرسوم التنفيذي رقم 06 ـ 10 المؤرخ في 15 ذي الحجة عام 1426هـ الموافق لـ 15 يناير سنة 2006م، ومن مهام هذا المركز:

- حفظ المخطوطات بالطرق العلمية الحديثة
- إجراء جرد عام للمخطوطات وتصنيفها
- القيام بفهرسة علمية للمخطوطات
- تسهيل طرق تحقيق أهم المخطوطات من طرف الباحثين المختصين
- تحديد الخريطة الوطنية للمخطوط
- دراسة مكونات المخطوطات (الورق، الحبر، صناعة أدوا ت الكتابة، صناعة الكتاب)
- إدماج التراث الفكري في الإطار الاقتصادي والسياحي
- إبراز القدرات الفكرية والإبداعات الفنية المحلية من خلال المخطوط (فن الخط، علم النقوش، التنميق)

- توفير أحسن وأنسب الأوعية لحفظ المخطوط
- تنمية الوعي بأهمية المخطوط والحفاظ عليه كهوية حضارية وثقافية للفرد والمجتمع
- اقتناء جميع الوسائل الضرورية لنشاطه
- إبرام جميع الاتفاقيات والعقود مع الهيئات الوطنية والدولية
- تحديد واختيار الرسالة الإعلامية المناسبة للتعريف بالقيمة العلمية والتراثية للمخطوط[18]

وحتى تكلل تلك الجهود الجبارة التي يبذلها الجميع من أجل الحفاظ على هذا التراث العظيم ذي القيم التاريخية، والاجتماعية، والدينية، واللغوية، والثقافية عموما، وحتى الاقتصادية، ويقوم المركز بهامه المناطة به يجب كسب ثقة أصحاب الخزائن أكثر حتى يفتحوا أبواب الخزائن، كما يفتحون قلوبهم للزائرين من باحثين ودارسين.

كما أن المخطوط بولاية ادرار لقي عناية في جوانب أخرى كالجرد والإحصاء والدراسة والتحقيق، ومن تلك الجهود في هذا المضمار نذكر:

1. نشر بعض الكتب (الفهارس) التي حاول أصحابها جرد وإحصاء مخطوطات بعض الخزائن منها كتاب "فهرس مخطوطات ولاية ادرار" للباحثين بشار قويدر، وحساني مختار

2. ورود أسماء مخطوطات ولاية ادرار في بعض الفهارس الجزائرية مثل كتاب "فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث واقع التراث الجزائري الأصيل بين المعلوم والمجهول" لبشير ضيف

3. قيام بعض أصحاب الخزائن بجرد وإحصاء مخطوطات خزائنهم ونذكر على سبيل المثال لا الحصر خزانة سيدي بونعامة بأقبلي، وخزانة ملوكة ببلدية تيمي، وخزانة ابن الوليد بباعبد الله ببلدية ادرار، وخزانة كوسام ببلدية تيمي...

4. التفات الباحثين إلى المخطوط دراسة وتحقيقا وإن كان هذا لم يمس إلا المخطوطات الدينية واللغوية والتاريخية بصفة خاصة

5. قيام بعض طلبة الجامعة الإفريقية بأدرار بفهرسة بعض الخزائن في تخصصات معينة كعلوم اللغة، والفقه الإسلامي وغيرهما

6. التوجه نحو تحقيق المخطوط العلمي وهو ما قام به الأستاذ مولاي عبد الله إسماعيلي في تحقيق ودراسة مخطوط "روض الزهر اليانع" لمحمد المحفوظ القسطني في علم الفلك

تلك هي مسيرة المخطوط في أرض توات بين كثرة الرمال وزوابعها وفرط الحرارة صيفا وقساوة البرد شتاء وجفاف الجو عموما، وقلة الإمكانيات خصوصا.

عوامل إتلاف المخطوط:

مما سبق ندرك أن المخطوط توالت على إتلافه وضياعه عوامل عديدة هي:

العامل الخارجي:

وتتمثل في الاستعمار الفرنسي الذي عمل على إتلاف الآلاف من المخطوطات والوثائق، كما استولى على العديد منها؛ حيث تم نقلها إلى فرنسا وخزنها في المتاحف الفرنسية وغيرها من المكتبات الأوروبية.

العامل الثقافي:

واقصد به جهل الإنسان الذي يمتلك الخزائن والمكتبات ويعتبرها إرثا يُمتلك كما تُمتلك الأرض الموروثة، حيث لا يسمح لأحد الاقتراب منها، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى تلك الذهنيات القائمة على الخزائن والمكتبات والتي تجهل قيمتها الفكرية والحضارية فيقمون على حراسة الخزائن وغلقها أمام الباحثين، بل ويفضلون الإبقاء عليها كما هي تبركا بها.

العامل الطبيعي:

إن المخطوط في توات عجل باندثاره طريقة حفظه التقليدية التي كانت بسيطة ولا تعتمد على طرق الحفظ والعناية بالمخطوط العلمية، مما جعل الأرضة والرطوبة والإصابات الجرثومية تعبث وتحوّل المخطوط إلى هشيم، ونستطيع الجزم بأن أغل المخطوطات التي أتلفت كانت محفوظة بالطرق التقليدية في أحسن الظروف، بل أن أغلبها كان مدفونا تحت التراب أو مغلق عليها في أماكن لا يعلمها إلا من أغلقها عليها، وكل هذا يعجل باندثار المخطوط[19].

المخطوط وخزائنه إرث ثقافي تاريخي:

إن الخزائن ومخطوطاتها تعد إرثا علميا وثقافيا وتاريخيا يجب الالتفات إليه والعناية به إنها مسؤولية الجميع في الوطن، إن هذا الإرث ما كان ليكون لولا جهود علماء ونخبة من رجال الفكر والإصلاح في الإقليم عبر قرون بعيدة حملوا لواء العلم وصنعوا ثورة علمية وثقافية في فيافي الصحراء القاحلة، فكانت توات مركزا علميا ورافدا من الروافد التي نهلت منه إفريقيا والسودان اللغة العربية والدين الإسلامي، وربما كانت توات الشمعة التي أضاءت ظلمات إفريقيا، يقول أبو القاسم سعد الله واصفا الحالة الثقافية في إقليم توات: "وهذه المنطقة غنية بتراثها العلمي والديني، وغنية بعلمائها ومؤلفيها، وبزواياها ونظمها، وكذلك غنية بآثارها

ومكتباتها"[20]، وهذه جملة من العوامل التي جعلت توات تتبوأ تلك المكانة التاريخية:

1. وفود عدد كبير من العلماء والصالحين إليها من كافة الأقطار والمناطق؛ من المغرب والمشرق وغيرهما، فأسهموا في نهضة البلاد وبث روح الثقافة فيها
2. وجود الأمن والاطمئنان في الإقليم عبر العصور ولو بنسب قليلة
3. الإقليم لم يخضع للسلطة العثمانية كما خضعت لها معظم البلاد الإسلامية مما أدى إلى سلامة اللغة العربية فيه
4. الموقع الاستراتيجي الهام حيث كانت توات طريقا لقوافل التجارة والحجاج مما سمح بتبادل الأفكار، والمخطوطات وكذا توفر مادة العلم من صمغ وورق ولو بسب ضئيلة
5. عكْف الكثير من مشايخ توات المشهود لهم بالكفاءة على دراسة آداب اللغة العربية وأصول الدين والعلوم الأخرى من طب، وفلك، وحساب...
6. خصال الرجل التواتي وحبه للعلم وتطلعه للمعرفة وإيمانه بأن العلم أفضل سلاح لمواجهة الحياة والأعداء

7. تنقل علماء توات إلى مختلف حواضر الغرب الإسلامي (فاس، وسجلماسة، وشنقيط، وتونس، ومصر،...) بحثا عن العلم ومجالسة العلماء والأخذ عنهم، وتبادل الإجازات

8. تأسيس الزوايا والمدارس العلمية التي كان لها الفضل الكبير في نشر العلم والثقافة بالمنطقة

وفي الأخير إن المخطوط بولاية ادرار مازال بحاجة إلى عناية أكثر؛ فإذا كان الحفاظ على المخطوط أحد وسائل العناية به وإدراك قيمته العلمية والتاريخية والاجتماعية، فإن تحقيقه ودراسته من قِبل مختصين لا تقل أهمية عن ذلك.

الخاتمة:

من خلال هذه المسيرة يمكننا أن نستخلص النتائج الآتية:

1. توات بموقعها الجغرافي والاستراتيجي، ووجود الأمن والسلم تمكنت من جلب الناس إليها، وتعمير الصحراء وتحويلها من منطقة طرد إلى منطقة جذب

2. فضل الزوايا وشيوخها والعلماء وطلابهم على توات لا ينكره إلا جاحد

3. تأسيس الزوايا ومراكز العلم جعلا من توات مخزنا للمخطوط تحسد عليه

4. توفَّر المخطوط بتوات بعد جهد الكثير من العلماء وطلبة العلم

5. كاد المخطوط في توات يندثر تحت التراب وبسبب السلب والنهب وكذا التفريط واللامبالاة بقصد أو بغير قصد

6. جهود القائمين على الخزائن ومخطوطاتها والحفاظ عليها تحسب لهم

7. جرد وإحصاء المخطوطات بخزائن ولاية ادرار أعطى الولاية مكانة علمية جعلتها قبلة للباحثين والدارسين بحثا عن المخطوطات قصد تحقيقها ودراستها

8. على الباحثين والدارسين وأهل التخصص الالتفات إلى هذا التراث جمعا وتقديما، وتحقيقا ودراسة.

الهوامش:

[1] قصر تسابيت يقع شمال ولاية أدرار ويبعد عنها بحوالي 60 كلم.

[2] . أبو سالم العياشي 1661 . 1663م، الرحلة العياشية، تح: سعيد الفاضلي، وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2006م، ط: 01، 79/1 . 80.

[3] . ينظر: فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977م، د ط، ص: 63 . 68. ومولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م، د ط، ص: 70.

[4] . هو أبو داود سليمان "الملقب بـ أوشن" بن مولاي علي الشريف بن أعمر بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أحمد بن علي يرتفع نسبه إلى سيدنا علي كرم الله وجهه، وُلد حوالي سنة 549 هـ/1154م، وصل إلى توات فاستقر به المقام بقصر أولاد أوشن، حيث أقام زاويته لطلاب العلم وإطعام الطعام، إلى أن توفي سنة 670هـ

[5] . هو محمد بن عبد الكريم المغيلي من مواليد تلمسان انتقل إلى توات وأقام بها وبنى بها زاويته العامرة إلى اليوم، كما زار بلاد التكرور وقابل حكامها وبنى بمدينة كانو النيجيرية مسجدا، حارب يهود توات وهدم كنائسهم، له مؤلفات كثيرة.

[6] . عبد الكريم عوفي، "مراكز المخطوطات في الجنوب الجزائري إقليم توات نموذجا"، مجلة آفاق الثقافة والتراث، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ع: 34، 2001م، ص: 115.

[7] . ينظر: نفسه، ص:115.

[8] . إحدى بلديات دائرة أولف التي تبعد عن الولاية أدرار بحوالي 250 كلم جنوبا.

[9] . ينظر: نفسه، ص: 113.

[10] . ينظر: فرج محمود فرج، (مرجع سابق)، ص: 88 . 91.

[11] . ينظر: عبد الكريم عوفي، (مرجع سابق)، ص: 123.

[12] . لم أقف على ترجمة لأحدهم، إلا أن جلهم عاش بن القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين.

[13] . هو عبد الرحمن بن عمر التينيلاني، ولد سنة 1121هـ أخذ عن شيوخ من توات، وآخرين من أقطار أخرى كالمغرب ومصر، وبلاد التكرور وغيرهما؛ فمن التواتيين عمر بن عبد القادر التينيلاني (1152هـ)، والشيخ محمد بن اب المزمري ت (1160هـ)، ومن المغاربة أحمد بن عبد العزيز بن إبراهيم الهلالي، كان أحد أعلام المنطقة وإليه تشد الرحال في طلب العلم، توفي بالقاهرة عند عودته من الحج سنة 1189هـ، وبها دفن.

[14] . ينظر: مبروك مقدم، المخطوطات داخل الخزانات الشعبية خلال القرن 19 وبداية القرن 20 بتوات وقرارة وتدكلت، (محاضرة مخطوطة) مركز الدراسات والأبحاث التاريخية ادرار، ص: 100.

[15] . عبد الكريم عوفي، (مرجع سابق)، ص: 128.

[16] . وهو السيد بلبالي الحاج محمد، وقصر ملوكة هو أحد قصور بلدية تيمي يبعد عن الولاية ادرار بحوالي 05 كلم.

[17] . ينظر: أحمد جعفري، خزائن المخطوطات بإقليم توات (الجزائر) الواقع والآفاق، مجلة آفاق الثقافة والتراث، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ع: 64، 2009م، ص: 127.

[18] . ينظر الموقع الإلكتروني: www.wikipedia.org

19 . ينظر: فهرس مخطوطات ولاية ادرار، بشار قويدر، وحساني مختار، أعمال المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ، وزارة الاتصال والثقافة، الجزائر، 1999م، د ط، ص: 12.

[20] . أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1977م، ط: 01، 142/2.